قدمت هذه الورقة البحثية الموسومة ب (الحكمة من عبادة الله تعالى وأثر ذلك في إشاعة قيمة السلم والتسامح) في إطار فعاليات الملتقى الدولي السادس الموسوم ب: (التربية الروحية ودورها في تعزيز السلم)، المنعقد ب دار الثقافة ولاية غليزان، تنظيم المركز الجامعي أحمد زبانة بغليزان، ومديرية الشؤون الدينية، بتاريخ: 26-2018/03/27م.

بقلم: د/ فتيحة محمد بوشعالة

ملخص

يتمحور موضوع هذا البحث حول إشكالية رئيسة هي: لماذا نعبد الله عز وجل؟ وقد يتبادر إلى الذهن الجواب البديهي، هو لأنه سبحانه وتعالى أمرنا بذلك، وهذا جواب صحيح، لكن لماذا أمرنا بعبادته وهو الغني عنا، حيث جاء في الحديث القدسي : (يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي ، فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكي شيئا)[1]

ما الحكمة إذا التي من أجلها أمرنا بعبادته؟

بالاستقراء لنصوص القرآن والسنة وقفت على تلك الحكمة متجسدة في كل جزئيات العبادة : في الشهادتين، الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج، مجاهدة النفس، في سنة الابتلاء، وغيرها.

فما يريده الله تعالى منا – وهو الغني عنا – هو الامتثال لأمره ، حبا وشكرا وافتقارا، حبا إذا ارتقينا وعرفناه حق المعرفة، وإن لم نرتق إلى تلك الدرجة فعلى الأقل شكرا واعترافا بالجميل، وافتقارا لأنه لا حول ولا قوة لنا إلا به.

يريد أن يرى مدى الامتثال والطاعة والافتقار منا – وهو أعلم به منا - حتى يقيم الحجة علينا .

وما العبادة إلا صورة وترجمان لذلك، ولذا جاء في الحديث: (من هم بحسنة فلم يعملها ، كتبت له حسنة..)[2] فأنت لما هممت فقد بدر منك الامتثال، سواء تم العمل – وهو الأفضل- أو لم يتم – لعذر- فقد عقد قلبك العزم على طلب الرضا والتقرب إليه سبحانه وتعالى والحاجة إليه، ويعضد هذا الحديث ما جاء في الأثر عن مالك بن دينار (نية المؤمن أبلغ من عمله)[3]

---

[1]- أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم - حديث:4780

[2]- أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب إذا هم العبد بحسنة كتبت - حديث:211

[3]- أخرجه أحمد في الزهد حديث:1904، وروي أيضا عن ثابت البناني عند أبي نعيم في الحلية، والأثر ضعيف، لضعف راويين في الإسناد وهما سيّار وجعفر، ضعفه البيهقي في السنن الصغير وفي الشعب.

فلو بحثنا في كل جزئيات العبادة وصورها عن تلك الحكمة، ومقصدها في شكل من أشكالها لفهمنا سر الأمر الإلهي وعرفنا المطلوب منا من خلال كل عبادة، ومن ثم أصل العبادة كلها.

يتجلى هذا المعنى في كل عبادة في الإسلام، وعلى رأسها أركان الإسلام الخمسة، سماها أركانا لأنها عليها ينبني الدين كله، وهي أعظم المظاهر التي يتجلى فيها مفهوم الامتثال والتسليم والامتنان وطلب الرضا والشكر والافتقار، يتجلى فيها مفهوم التضحية من أجل المحبوب، الذي نحبه ونقدم له كل غال علينا تعبيرا عن ذلك الحب.

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ التوبة: ١١١

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : (" ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما..)[4]

وإن لم نرتق إلى هذه الدرجة، درجة المحبة، على الأقل نبلغ درجة رد الجميل والشكر مقرونا بالافتقار، بالامتثال والطاعة لمن أسدى إلينا معروفا بل المعروف كله والخير كله.

وتوضيحا أكثر للفكرة، أقول لو أن ولدك الذي هو ليس ملك لك، لا تملك روحه ولم تخلقه، إن أساء الأدب معك يوما، تغضب منه وتشعر بحسرة كبيرة، كيف يتصرف معك هكذا وأنت والده الذي ربّاه وتعب لأجله، وأطعمه وسقاه، وكساه وحماه، وأحاطه بعنايته. كل هذا يدور بذهنك، وربما صارحته بذلك مذكرا إيّاه بفضلك عليه، وينفد صبرك لو كررها مرة أو مرات، فلربما عاديته وهجرته وطردته من البيت لو واجهك وتحدّاك وأظهر العصيان والعقوق.

فأنت تنتظر منه كل خير تجاهك ردا للجميل واستشعارا للمحبة، وأنت بداخلك توجبها لنفسك نظرا لما قدمت وضحيت، مع أنك لا تملكه، لأنك لم تخلقه.

[4]- متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب حلاوة الإيمان - حديث:16، ومسلم في كتاب الإيمان باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان - حديث:85 واللفظ للبخاري.

ولعل لهذا المعنى، معنى الامتثال حبا وردا للجميل، نجد الحق تبارك وتعالى يثني بعد ذكر حقه على العباد بحق الوالدين، لعظيم فضلهما على الأبناء، فهما بشر لا يستحقان العبادة ولكن يستحقان الإحسان حبا وردا للجميل قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ الإسراء: 32

وقد أشار إلى هذا الفهم الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله تعالى في تفسيره حين قال: " الله هو الخالق، والوالدان- بوضع الله- هما السبب المباشر في التخليق.

والله هو المبتدئُ بالنعم عن غير عمل سابق، وهما يبتدئان بالإحسان عن غير إحسان تقدم.

والله يرحم ويلطف وهو الغني عن مخلوقاته، وهم الفقراء إليه، وهما يكنفان بالرحمة واللطف الولد، وهما في غنى عنه، وهو في افتقار إليهما.

والله يوالي إحسانه ولا يطلب الجزاء، وهما يبالغان في الإحسان دون تحصيل الجزاء.

فلهذه الحالة التي خصهما الله بها وأعانهما بالفطرة عليها، قرن ذكرهما بذكره؟ فلما أمر بعبادته أمر بالإحسان إليهما في هذه الآية، وفي قوله تعالى:

{وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [النساء: 36].

ولما أمر بشكره أمر بشكرهما فقال تعالى: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} [لقمان: 14].

وفي هذا الجمع في القضاء والحكم بالإحسان والأمر بالشكر لهما مع الله تعالى أبلغ التأكيد وأعظم الترغيب.

ثم زاد هذا الحكم وهذا الأمر تقريراً بلفظ التوصية بها في قوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا} [العنكبوت: 8]، ليحفظ حكم الله وأمره فيهما، ولا يضيع شيء من حقوقهما، فكان حقهما بهذه الوصاية، أمانة خاصة، ووديعة من الله عظيمة عند ولدهما، وكفى بهذا داعياً إلى العناية بهذه الأمانة وحفظها وصيانتها.

وكما جاء هذا الجمع في باب الأمر في القرآن كذلك جاء في الجمع بينهما في باب النهي وكبر المعصية، في السنة: ففي الصحيح عن أبي بكرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا أخبركم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين»[5]."[6]

فكيف برب العزة، الذي خلقك فسوّاك فعدلك، ورزقك وحباك بكل النعم، وهو يملك روحك وجسدك، وهو القادر عليك، وهو الغني عنك، ثم تغفل عن عبادته بل وتعصيه وتمعن في المعصية، وتجاهر بذلك، وأحيانا تدعو إلى ذلك، ومع كل ذلك يصبر عليك ويحلم ويعفو ويستر ولا ينقطع رزقه، ولو أخطأت في حقه ألف مرة -إذا رجعت-، ويمهلك ويمنحك الفرصة تلو الفرصة، وباب الإنابة إليه مفتوح لا يوصده أمامك حتى تغرغر.

ألا يستحق هذا الرب العبادة حبا وشكرا وامتثالا وتسليما وافتقارا؟ !!!!!!!!!

هو وحده من يستحق الحب والحمد والشكر ورد الجميل والامتنان والافتقار، وليُسهِل علينا ذلك لم يتعبدنا سبحانه وتعالى بنوع واحد من صور العبادة بل جعلها أنواعا- وذلك من رحمته وحكمته- لتشمل جميع مجالات المجاهدة والتضحية: مالية، روحية، نفسية، بدنية، فقد يقصر الإنسان في واحدة وينشط في أخرى فلا يفوته الخير. وحتى لا تمل النفس وتفتر ، فجعل سبحانه عبادته والتي هي أصل واحد أنواعا شتى وصورا عديدة.

تتجلى هذه الحكمة في كل العبادات:

<u>المطلب الأول : تجلي الحكمة من العبادة في الشهادتين:</u>

الشهادتان مفتاح الإسلام وإعلان توحيد الله تعالى وإفراده بالألوهية والربوبية والأسماء والصفات، والتبرؤ مما سواه والتجرد من الحول والطول والقوة إلا حوله وقوته، ومن ثم هي أول خطوة للعبودية الحقة وإمضاء العقد والعهد على الإذعان والامتثال والاستعداد التام للتلقي عن الله حبا وطاعة

[5]- أخرجه البخاري في ك الأدب باب 6، وك الاستئذان باب 35، واستتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم باب 1.

[6]- تفسير ابن باديس مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير (ص: 66)

وافتقارا، ولا يفعل هذا إلا من عرف ربه حق المعرفة وعرف قدره وأدرك قيمة هذا الخير الكبير الذي جاءنا به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم،.

ولا يتأتى ذلك إلا بإتباع من يبيّن لنا طريق العبودية وهو المصطفى صلى الله عليه وسلم، وهذا معنى (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله).

وتوحيد الله معناه أنه أحق من عبد وأحق من سئل وأحق من ذكر وأحق من شكر، ولا يمكن أن يعبد الله عز وجل ولا يمكن أن يسأل ولا يمكن أن يذكر ولا يمكن أن يشكر إلا بما علمنا إياه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

وهذا مصداق قوله عز وجل﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ آل عمران: ١٣ لو كان حبك صادقا لربك فعليك بإتباع من أمرك بإتباعه .

إله لا مثيل لأسمائه ولا لصفاته: هو الواحد الأحد الفرد الصمد، ومعنى الصمد السيد الذي لا يقصد سواه، ولا يقضي الحوائج إلا هو، ألا يستحق هذا أن يعبد وحده ، هذا الذي متى قصدته قضى حوائجك، ومتى طرقت بابه لم يردك متى جئته خاضعا متذللا مفتقرا، ألا يستحق مَن هذا وصفه أن يحب كل الحب ويشكر كل الشكر.

إله يرزق بغير حساب، عطاؤه لا ينقطع آناء الليل وأطراف النهار، إله يرعاك في كل حين وإن كنت غافلا عنه، ألا يستحق الحب والشكر والامتنان؟ ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ الأنبياء:٤٢

هل من رازق غيره يستحق الشكر والحمد: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ الملك: ٢١

من هذا الذي يستطيع تصويرك في أحسن صورة ويستطيع أن يجعلك في أحسن تقويم غيره سبحانه؟ ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الملك: 23

لو أمسك هذا الرازق علينا نعمة واحدة كنعمة الماء من سيردها علينا؟ من يقدر على ذلك؟

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ الواقعة: ٦٨ - ٧٠

ألا يستحق هذا الإله كل الحب وكل الحمد وكل الشكر وكل العبودية؟

المطلب الثاني: تجلي الحكمة في الصلاة

أما الصلاة فمعانيها عديدة: الدعاء والعبادة والصلة، وهي بهذا المفهوم ، مفهوم تقديم أعز ما تملك لمن تحب ، أو رد الجميل لمن سبق إليك خيره عبارة عن طلب المدد والعون والافتقار لمن تحبه وتعرف قدره وقوته ، وتعظيمه وتنزيهه وتقديسه والسجود له،فقد جاء في الحديث : (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن) [7] فهي امتثال روحي ونفسي وجسدي طلبا لرضاه ، هي تضحية بما تحب من أجل ما يحب ، تضحية براحتك بوقتك بشهواتك من أجل أن تواظب على التقرب منه سبحانه وطلب الوصل والعون، وشكرا على ما أنعم به عليك.

بهذا الفهم لن تستثقل طاعة ولا أمر ولا نهي، فهو ما أمرك إلا ليرى مدى استجابتك وامتثالك ومسارعتك لتلبية ذلك – وهو يعلم منك كل ذلك قبل أن تفعل وحتى قبل أن تخلق، ولكنه سبحانه يريد أن يريك من نفسك ما أنت فاعل فيما يريده منك –

وما نهاك إلا ليرى مدى مجاهدتك لنفسك وكبح جماحها امتثالا لنهيه، فبقدر مسارعتك إلى ما أمرك به وابتعادك عما نهاك عنه تكون منزلتك عنده قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ العنكبوت:٦٩ فهو تعبدك بتلك المجاهدة للنفس.

بهذا الفهم ستكون الصلاة يسيرة علينا، حبيبة إلى قلوبنا، ولذلك قال الحق تبارك وتعالى﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ البقرة:٤٥

فالخاشع هو مخبت القلب الذي لان قلبه لطاعة الله وفهم عن الله مراده، وبهذا الفهم كان الحبيب صلى الله عليه وسلم يقول: (" يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها)[8]

كان يجد فيها الراحة، لأنه يدرك أنها قربٌ من الذي يحبه وتواصل معه وطلب المدد والعون منه.

كما نلمس مفهوم طلب الامتثال في صلاة الصبح، حين يقول المؤذن: الصلاة خير من النوم، لأنه يعلم سبحانه أن النوم في تلك الفترة محبب إلى النفس، فهي تريد الراحة والدفيء، فهو يريد أن يرى منك في تلك اللحظة مدى الامتثال إيثارا لما يحب على ما تحب، فافهم.

---

[7]- أخرجه مسلم في - كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب تحريم الكلام في الصلاة - حديث:868، وغيره. من أصحاب السنن

[8]- أخرجه أبو داود في كتاب الأدب باب في صلاة العتمة - حديث:4354، والطبراني في المعجم الكبير باب من اسمه سهل سلمان بن خالد الخزاعي - حديث:6088، وقال الألباني في حديث أبي داود : إسناده صحيح.

وللمعنى الآخر، معنى الامتثال شكرا، نجد الحبيب صلى الله عليه وسلم يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه الشريفتان شكرا للنعمة واعترافا بالجميل، جميل من أحسن إليه وإلى أمته وإلى البشرية جمعاء، فقال: حين سئل عن تلك المجاهدة للنفس ومكابدة السهر والتعب – عن حب ورضا - : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا صلى قام حتى تفطر رجلاه ، قالت عائشة : يا رسول الله أتصنع هذا ، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال : " يا عائشة أفلا أكون عبدا شكورا ".)[9]

كما يتجلى السبب الثالث للامتثال وهو الافتقار في الدعاء، ونحن قلنا أن الصلاة تأتي أيضا بمعنى الدعاء، فالدعاء أرقى عبادة يتجلى فيها مفهوم الحاجة إلى الله تعالى والافتقار والتذلل له سبحانه، ألا ترى قول النبي صلى الله عليه وسلم: (الدعاء هو العبادة "، ثم قرأ هذه الآية : ادعوني أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين)[10]

فلخص النبي صلى الله عليه وسلم العبادة كلها في الدعاء ، لأن الدعاء يبين افتقارك إلى سيدك ومولاك وخضوعك له والتجاءك إليه وطلبك منه، الدعاء هو عين الافتقار بدليل تلاوته صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى تدليلا على هذا المفهوم: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠ ﴾ غافر: ٦٠

الذي لا يدعو الله عز وجل هو مستكبر عن عبادته، فسمى الدعاء عبادة، لأن المقصود من العبادة كلها هو إظهار الخضوع والتذلل والاستكانة والافتقار إليه سبحانه وتعالى، ولذا قال تعالى ﴿ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ ﴾ الفرقان:٧٧

ماذا يفعل بكم إن استغنيتم عن دعائه؟ هو لم يخلقكم إلا لذلك.

وهذا المعنى أيضا جاء في الحديث: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)[11] لأن التكبر مناف للعبودية التي هي الخضوع والافتقار.

المطلب الثالث: تجلي الحكمة في الصوم:

---

[9]- متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن سورة البقرة، باب ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر حديث:4560، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة - حديث:5153، واللفظ لمسلم.

[10]- أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة باب تفريع أبواب الوتر - باب الدعاء، حديث:1277، والترمذي في أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب : ومن سورة البقرة، حديث:2978، وقال حديث حسن صحيح، وغيرهما، واللفظ لأبي داود.

[11]- أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه - حديث:156، وغيره.

أما الصوم فيتجلى فيه ذلك المفهوم كل التجلي، كونه حرمان للنفس من شهواتها لا لشيء إلا طاعة لله، وطلبا لرضاه وامتثالا لأمره حبا وعرفانا،

فالصلاة وإن كانت طاعة وامتثالا ففيها حظوظ للنفس من وجود الراحة النفسية عند الفزع إليها من الهموم، وتنفيس الكرب بطلب العون عند الضيق، فالمؤمن حين يقول في سجوده: يا رب يستريح،

والزكاة وإن كانت طاعة وامتثالا ففيها أيضا حظوظ للنفس، وهي حب الإنفاق وحب الجود وحب الكرم، وحب إسعاد الآخرين، وحظ أن تكون اليد العليا.

وكذلك الحج وإن كان طاعة وامتثال ففيه حظوظ للنفس من حب السفر والبيع والشراء، والتقاء الناس من كل أنحاء العالم، وغيرها من المنافع.

أما الصوم فهو الامتثال المحض، ودع عنك الفوائد الصحية فالنفس لا تطلبها، ومن هنا نفهم معنى قول الله عز وجل في الحديث القدسي: (الصوم لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وأكله وشربه من أجلي)[12]

وفي رواية للشيخين: (كل عمل ابن آدم له إلا الصيام ، فإنه لي وأنا أجزي به..)

فهو قمة الامتثال بحرمان النفس من حظوظها دون مقابل إلا رضا الرب سبحانه. وهذا ما سطره أبو العباس القرطبي في المفهم نقلا عن الخطابي: "أن أعمال بني آدم كلها لهم فيها حظ إلا الصيام فإنهم لا حظ لهم فيه"[13]

ولذا نجد النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الصيام في رمضان وخارج رمضان، بل وكان يواصل، لأجل هذا المعنى إمعانا في طلب الرضا وشكر صاحب النعم، في حين نهى أمته عن الوصال رفقا ورحمة، فقد أوتي صلى الله عليه وسلم قوة روحية وجسدية لم يؤتيها غيره من أمته.

المطلب الرابع: تجلي الحكمة في الزكاة

الزكاة بمفهومها الواسع هي تطهير للنفس من درن الشح والحرص، فهي مجاهدة للنفس التي حبب إليها الجمع والكنز، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ

[12]- متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى : يريدون أن يبدلوا كلام الله - حديث:7076، ومسلم في كتاب الصيام، باب فضل الصيام - حديث:2016، واللفظ للبخاري.

[13]- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، 212/3.

ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ آل عمران: ٤١،

وهي من ثمة تضحية وبذل ما على الإنسان من ماديات لله عز وجل – وهو الغني عنا –إظهارا للامتثال والإذعان .

بهذا الفهم لن يستثقل الإنسان ما يخرج من ماله لله عز وجل، سواء أكان فريضة أم نافلة، بمفهوم الحب، أن تقدم لحبيبك أغلى ما تملك من أموال، فستقدمه بكل رضا وطواعية وأنت مغمور بالسعادة، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ ﴾ التوبة:111.

لأنك وأنت تقدمه لمستحقيه من الناس، أنت في الحقيقة لا ترى نفسك تتعامل معهم بل مع الحق سبحانه، وهذا ما دلت عليه الآية:﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ الإنسان:٩

الله سبحانه لما أمرك بالزكاة يريد أن يرى منك مجاهدتك لنفسك في تخليها عن شحها وتركها لحظوظها مقابل رضاه وامتثالا لأمره، بتلك المجاهدة ينال المرء أعلى درجات القبول عند الله عز وجل، وهو القائل: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾ آل عمران: ٩

وأنت حين ترى نفسك تعطي لله – وهو الغني عنا- لا للخلق فستعطي أحسن ما عندك وأفضل ما عندك قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ..﴾ المائدة: ٧٢

فالذي رأى أنه يقدم لمحبوبه قدم أحسن ما عنده، والآخر قدم أسوأ ما عنده لأنه لا يرى الله في تعامله، وفي الحقيقة نحن في كل تعاملاتنا مع البشر لا نتعامل معهم إلا صورة لأننا في الحقيقة نتعامل مع الله من خلالهم، فنحن إذا أحسنا إليهم فتأدبا مع الله وإذا أسأنا إليهم فقد بغينا وعصينا الله، وهذا المعنى يتجلى بوضوح في الحديث القدسي الصحيح: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم مرضت فلم تعدني ، قال : يا رب كيف أعودك ؟ وأنت رب العالمين ، قال : أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني ، قال : يا رب وكيف أطعمك ؟ وأنت رب العالمين ، قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان ، فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ، يا ابن آدم

استسقيتك ، فلم تسقني ، قال : يا رب كيف أسقيك ؟ وأنت رب العالمين ، قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه ، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي)[14]

أنت حين تزور مريض، فأنت ذاهب لزيارة الله عز وجل في الحقيقة لأنك تقصد وجهه بتلك الزيارة، وحين تستشعر هذا تغمرك سعادة فائقة، وستأخذ في زيارتك أحسن ما عندك من إكرام لذلك المريض، وأنت حين تطعم فقيرا، أنت في الحقيقة تضع في يدي الله ما أطعمته، وحينها ستقدم أحسن ما عندك من طعام، وأنت حين تلبس فقيرا لباسا فأنت في الحقيقة قدمته لله، ووضعته في يد الله، وحينها ستقدم أحسن لباس وأحسن كسوة، لأنك ترى الله في تعاملك لا ترى الناس.

المطلب الخامس: تجلي الحكمة في الحج

هو رمز التضحية بالمال والجسد، وراحة النفس وتكبد المشقة والعناء لا لشيء إلا تلبية لنداء الرحمن ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾ الحج: ٧٢

وطلبا لرضاه ومحبة لزيارته وشوقا إليه، وامتثالا لمراده، إذا سرت في طريقك إلى البيت الحرام بهذا الفهم، سيمتلئ قلبك حبا وفرحا بالله ولله وستغمرك سعادة لا توصف، أنت مهاجر إلى ربك، لا لغاية أخرى، ولا نقصد هنا نفي المنافع الأخرى، فهي تأتي تبعا لا قصدا.

ولهذا قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: **(وَالحَجُّ المَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الجَنَّةُ)**[15]

لما فيه من صور التضحية والفداء والبذل والصبر طلبا لرضا المحبوب. فأنت تأتي ربك مكشوف الرأس، متقلل الثياب رافعا يديك بالضراعة والدعاء خاشعا متذللا منكسرا ترجو رحمته وتطلب مغفرته ورضاه، وأنت بذلك في قمة الحب والشكر والافتقار، وهذا عين العبادة.

وفي الحج حقيقة تجتمع كل العبادات، الصلاة والدعاء والصدقة، وتقديم القربان، ومكابدة الجسم للمشقة، فتتحقق فيه كل مقاصد العبادات السابقة وكل المعاني المذكورة.

---

[14]- أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل عيادة المريض - حديث:4767

[15]- متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الحج باب وجوب العمرة وفضلها، ح 1773، ومسلم في كتاب الحج باب في فضل الحج والعمرة ح 437، واللفظ للبخاري.

أنت بقولك : لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، قد صدحت صراحة بالامتثال لربك الذي ناداك بقوله:(وأذن) لبيك، أي قد جئتك يا ربي مسرعا مهرولا تركت الأهل والمال والولد والبلد، جئتك طائعا خاضعا متذللا طمعا في رحمتك وجودك ومغفرتك وطلبا لرضاك وجنتك، لا شريك لك. جئتك يا رب حبا شكرا وطمعا.

المطلب السادس: تجلي الحكمة في تشريع الجهاد

الجهاد صور عديدة[16]، جهاد بنائي أي بناء الأمة وإعدادها إعدادا قويا بدليل قوله تعالى:﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠ ﴾الأنفال: ٦٠

وجهاد دعوي، أي مجاهدة أعداء الدين بالحجة ومجادلتهم ومحاورتهم بالقرآن، فقال تعالى:﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢ ﴾الفرقان: ٥٢

وجهاد نفسي، أي مجاهدة النفس وحملها على إتباع الأوامر واجتناب النواهي، وعلى الاستقامة على الصراط المستقيم، وفي هذا قال الحق تبارك وتعالى﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾ العنكبوت:٦٩

وقال: قَالَ تَعَالَى:﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١ ﴾ النازعات٤٠ - ١٤

والنوع الرابع جهاد قتالي، وهو محاربة العدو ومقاتلته بالسلاح، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣ ﴾ التوبة: ٣٧

ونحن هنا نتحدث عن القتال، الذي هو أرقى صور التضحية والبذل، بذل أغلى ما يملك المؤمن: روحه وهي حياته ،كلها تجمع كل ما يملك من مال وأهل وولد ومساكن وراحة نفس وبال وجسد، يضحي بكل هذا من أجل الله عز وجل الذي طلب منه ذلك، قَالَ تَعَالَى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ

[16] هذه الفكرة استفدتها من درس للشيخ راتب النابلسي حول العقيدة والإعجاز. كون الجهاد أربعة أنواع.

أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ التوبة: ١١١

لذا كان الجهاد ذروة سنام الإسلام أعلى شيء فيه ، لما فيه من الامتثال حبا وطاعة وتقربا، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد)[17]

أن تجود بروحك ومالك وحياتك وأهلك وكل ما تملكه في هذه الدنيا من أجل إعلاء كلمة الحق وطلبا لرضا الرب، فهذا منتهى الامتثال حبا وشكرا وافتقارا. فأنت تقدم حياتك قربانا لمن تحب وشكرا له على ما أنعم به عليك وطمعا في جنته والقرب منه يوم القيامة،

ألم تسمع إلى قوله تعالى:﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ التوبة: ٢٤

كل هذه الملذات يذهب بها الجهاد، تتركها من أجل محبوبك. ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم:(ما العمل في أيام أفضل منها في هذه(عشر ذي الحجة) ؟ " قالوا : ولا الجهاد ؟ قال : " ولا الجهاد ، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله ، فلم يرجع بشيء)[18]

وحين قال ولا الجهاد، فهو يقصد أن الجهاد يمكن أن يرجع فيه بالنصر والغنائم، أما الحالة التي ذكرها وجعلها أفضل عمل يقدمه الإنسان هي الشهادة في سبيل الله تعالى، وهي عين التضحية.

[17]- أخرجه الترمذي في أبواب الإيمان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب ما جاء في حرمة الصلاة، حديث:2606، وقال حسن صحيح، وأحمد في مسند الأنصار، حديث معاذ بن جبل - حديث:21474 وغيرهما، وصححه الألباني.

[18]- أخرجه البخاري في كتاب الجمعة، أبواب العيدين - باب فضل العمل في أيام التشريق، حديث:940، وغيره.

ولهذا المعنى حُبّب إلى الصحابة رضي الله عنه الجهاد، فهذا أبو هريرة رضي الله عنه يقول: (والذي نفسي بيده لولا الجهاد في سبيل الله ، والحج وبر أمي ، لأحببت أن أموت وأنا مملوك) بعد ما قال له النبي صلى الله عليه وسلم: (" للعبد المملوك الصالح أجران)[19]

ولهذا المعنى لم يجد النبي صلى الله عليه وسلم ما يعدل الجهاد في الفضل ويساويه، جاء في الحديث:(: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : ما يعدل الجهاد في سبيل الله عز وجل ؟ قال : " لا تستطيعونه " ، قال : فأعادوا عليه مرتين ، أو ثلاثا كل ذلك يقول : " لا تستطيعونه " ، وقال في الثالثة : " مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله ، لا يفتر من صيام ، ولا صلاة ، حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى ")[20]، ذلك أن الجهاد امتثال مستمر حتى النصر أو الشهادة، ولذاك قال كمثل الصائم والقائم لا يفتر، فالذي يصلي في امتثال ما دام يصلي فإذا فرغ من الصلاة ، توقف الامتثال، وكذلك الصائم إذا افطر توقف الامتثال، ولهذا وضع شرط لا يفتر، أي لا يتوقف عن العبادة، وهذا غير ممكن، ولذا قال: لا تستطيعونه، ذكر زين الدين العراقي: "الْمُجَاهِدُ فِي جَمِيعِ حَالَاتِهِ فِي عِبَادَةٍ مَعَ الْمَشَقَّةِ الْبَدَنِيَّةِ وَالْقَلْبِيَّةِ، وَمُخَاطَرَتِهِ بِنَفْسِهِ الَّتِي هِيَ أَعَزُّ الْأَشْيَاءِ عِنْدَهُ، وَبَذْلِهِ لَهَا فِي رِضَا اللَّهِ تَعَالَى.
قَوْلُهُ (حَتَّى تَرْجِعَ) الظَّاهِرُ أَنَّهُ أَرَادَ بِهِ انْتِهَاءَ رُجُوعِهِ إلَى وَطَنِهِ، وَأَكَّدَ بِهَذِهِ الْغَايَةِ اسْتِيعَابَ هَذَا الْفَضْلِ جَمِيعَ حَالَاتِهِ بِحَيْثُ لَا يَخْرُجُ فِي حَالَةٍ مِنْ الْأَحْوَالِ عَنْ كَوْنِهِ مَثَلَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الدَّائِمِ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ ابْتِدَاءُ رُجُوعِهِ، وَهُوَ بَعِيدٌ."
فِيهِ أَنَّ الْجِهَادَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ لِأَنَّهُ شَبَّهَ الْمُجَاهِدَ فِي حَالَةِ الْجِهَادِ، وَفِي وَسَائِلِهِ وَمُقَدِّمَاتِهِ بِحَالَةِ مَنْ لَا يَفْتُرُ مِنْ صَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَقِرَاءَةٍ فَكَانَ هُوَ بِمُفْرَدِهِ كَهَذِهِ الْأَعْمَالِ بِمَجْمُوعِهَا.." [21]

ولهذا المعنى لم ير الله عز وجل من جزاء يجازي به المجاهد إلا الجنة في الآخرة، فهو قد نجح في الامتحان، امتحان الامتثال والتضحية في أعلى صورها من أجل المحبوب وطلب رضاه، فجاء في الحديث: ("تكفل الله لمن جاهد في سبيله ، لا يخرجه إلا الجهاد في سبيله ، وتصديق كلماته بأن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه ، مع ما نال من أجر أو غنيمة)[22]

---

[19]- متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب العتق، باب العبد إذا أحسن عبادة ربه ونصح سيده - حديث:2430، ومسلم في كتاب الأيمان، باب ثواب العبد وأجره إذا نصح لسيده وأحسن عبادة الله - حديث:3229، واللفظ للبخاري.

[20]- متفق عليه، أخرجه البخاري في - كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير - حديث:2651، ومسلم في - كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى - حديث:3581، واللفظ لمسلم.

[21]- طرح التثريب في شرح التقريب، الزين العراقي، 193/7.

[22]- متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب فرض الخمس، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : " أحلت لكم - حديث:2972، ومسلم في كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله - حديث:3575

المطلب السابع: تجلي الحكمة في مجاهدة النفس

مجاهدة النفس في نوع من أنواع الجهاد كما سلف، وقد تعبدنا الله عز وجل بذلك، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ العنكبوت:٦٩

مجاهدة النفس أي محاربتها في شهواتها، لا القضاء عليها فهذا ينافي الفطرة لأن النفس مجبولة على حب الشهوات قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤ ﴾ آل عمران: ٤١،

وإنما المقصود تهذيبها وتربيتها على التوسط فيما أحل الله وعدم الإسراف فيه، وحملها على الانقياد والانصياع لأمر الله عز وجل واجتناب ما نهى الله عنه، وترك حظوظها، وهي الأمارة بالسوء.

ونلمس حكمة طلب الامتثال في هذه العبادة، كون الشهوات محببة للنفس، وفي الوقت نفسه جعلت الشهوات مداخل جهنم والعياذ بالله، فقد جاء في الحديث: (حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات)[23]، هنا يكون محل التعبد ، التدافع بين مطالب الروح وهي الجنة ومطالب النفس وهي الشهوات، قال ابن حجر: "والمراد بالمجاهدة كف النفس عن إرادتها من الشغل بغير العبادة..وقال ابن بطال: جهاد المرء نفسه هو الجهاد الأكمل، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١ ﴾ النازعات٤٠ - ١٤

ويقع بمنع النفس عن المعاصي وبمنعها من الشبهات، وبمنعها من الإكثار من الشهوات المباحة لتتوفر لها الآخرة.."[24]

وبهذا المفهوم تشمل مجاهدة النفس حملها على جميع الطاعات وصرفها عن جميع المعاصي والشهوات، ويستغرق هذا حياة الإنسان كلها، لذا كان جهادا،

فأنت تجاهد نفسك بصرفها عن الحسد الذي هو اعتراض على قدر الله، وبتركها للكبر والغرور الذي هو ينافي الافتقار إلى الله عز وجل، وينازع الله عز وجل في عظمته وجبروته، جاء في الحديث القدسي : (الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحدا منهما ، قذفته في النار)[25]

---

[23]- أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب : حجبت النار بالشهوات - حديث:6132 من طريق أبي هريرة، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث:5156 من طريق أنس بن مالك ، واللفظ لمسلم.

[24]- فتح الباري، ابن حجر، 380/11,

[25]- أخرجه أبو داود في كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر - حديث:3585، وابن حبان في كتاب البر والإحسان، باب ما جاء في الطاعات وثوابها - ذكر الإخبار بأن من تقرب إلى الله قدر شبر أو ذراع، حديث:329، وقال الألباني صحيح. وغيرهما

وبتركها للرياء الذي فيه حظوظها بقصد غير الله في أفعالها، ولهذا المعنى كان الشرك أعظم الكفر وأكبر ظلم كونه به ينصرف القلب ومن ثم العبد عن عبادة الله إلى غيره.

يجاهدها على الإتيان بالطاعات على أكمل وجه من إخلاص وإتقان، ومداومة وصبر .

يحملها على الإحسان في كل الأعمال، مع الله عز وجل مع الناس، وحتى مع الحيوان والجماد.

تجاهدها على الإذعان والامتثال حبا وشكرا وافتقارا إليه سبحانه وتعالى.

المطلب الثامن: تجلي الحكمة في سنة الابتلاء

تعبدنا الله عز وجل بالابتلاء، والابتلاء هو الامتحان والاختبار، فما حياة الإنسان التي يحياها في هذه الأرض إلا ساعة امتحان تمضي ثم يصل إلى النتيجة، جنة أو نار، قال عز من قائل:﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ ﴾ العنكبوت:٢

فميزان الإيمان ومحكه هو الابتلاء، فلا يتبين الحق من الباطل إلا بالابتلاء ،

وقرر الحق تبارك وتعالى هذه السنة وهذه العبادة حين قال: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١ ﴾ محمد: ٣١

فلا يتجاوز أحد هذا القانون، قانون الابتلاء، والغربلة، لأنه المحك الحقيقي لتمييز الطائع من غيره، فليس كل من يقول أنا مؤمن هو حقيقة كذلك،

والابتلاء نوعان: ابتلاء لرفع الدرجة، وهذا ديدن الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وهذا مصدقاه حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (: قلت : يا رسول الله ، أي الناس أشد بلاء ؟ قال : " " الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، فيبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة)[26]

والنوع الثاني ما كان عقابا على ذنب، وهو تنبيه للمؤمن من الله تعالى حبا فيه، ليرده إلى الصراط المستقيم، فالذي لا يحبه، لا يعاقبه على معصية، بل يمهله ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر،

والنوع الثاني دليله قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ النساء:٧٩

أي أن ما يصيبك من البلاء في الدنيا فهو نتيجة ما ارتكبت من خطايا. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٨٢ ﴾ آل عمران: ١٨٢ ، وقال أيضا:﴿ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤٨ ﴾ الزخرف٤٨

[26]- أخرجه الترمذي في أبواب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب ما جاء في الصبر على البلاء، حديث:2380، وقال حديث حسن صحيح، وغيره.

فالابتلاء شرعه الله تعالى ليختبر مدى حبك له وتسليمك له ورضاك بحكمه، لأننا في الحقيقة لله، ملكه يفعل بنا ما يشاء، وهو العدل الحكيم الرحمن الرحيم. ولذا شرع لنا أن نقول حين المصيبة: (إنا لله وإنا إليه راجعون) معناها: نحن ملك لله يفعل بنا ما يشاء، وفي الأخير نحن راجعون إليه.

أما النوع الأول من الابتلاء، والذي يكون لرفع الدرجة، فهو عين طلب الامتثال، لما يبتليك الحق سبحانه وتعالى وأنت على الطاعة، معناه أنه يريد أن يرى منك التسليم والرضا به وعنه، يريد أن يرى منك حقيقة العبودية، فأنت عبد له يفعل بك ما يشاء – وهو العدل الحكيم الرحيم – فإذا سلمت وأذعنت ولم تعترض فقد نجحت في الامتحان، امتحان الامتثال حبا وافتقارا.

ألم تر كيف أراد أن يصفي قلب إبراهيم عليه السلام من كل شائبة تشوبه عن حب سواه، فتشغله عنه سبحانه، فابتلاه في أعز ما يملك، أعز ما عنده، فلذة كبده، ولد وحيد جاء على كبر

فلما فهم إبراهيم عن الله عز وجل مراده، أسلم وامتثل، ولم يكتف بنفسه، فنقل ذلك الفهم عن الله لابنه، فلما أسلما وأظهرا تمام الطاعة والحب والإذعان، وذلك بتقديم أعز ما يملك العبد، جاءت البشرى، بأن قد نجحتما في الامتحان، فلا تثريب عليكما، وبعد ذلك جاء الفداء والذبح كرامة لهما.

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١١ ﴾

الصافات: ١٠٢ - ١١١

ألم تر أن العمل ليس مقصودا في ذاته – وإن كنا مطالبين بالإتيان به على أكمل وجه – وإنما المقصود مدى الامتثال، وبهذا كان إبراهيم عليه السلام أمة، لأنه نجح في الامتحان.

وأما النوع الثاني وهو ما يكون عقابا على ذنب ليرجع الإنسان إلى خالقه، فهو يعاقبك ليردك إليه وتذعن لربوبيته، وما عاقبك في الدنيا إلا لأنه يحبك، يريدك أن تستفيق وتسرع بالرجوع والإنابة إليه، لأنك المفتقر إليه وهو الغني عنك.

ومثل هذا الابتلاء كمثل راع يرعى الغنم[27]، فلما شردت نعجة وابتعدت عن القطيع، رماها الراعي بحجر صغير ليردها للقطيع خوفا عليها من الذئب، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، ولو ما كان يحبها ويرضى لها الخير لما رماها بالحجر، فكذلك الابتلاء ولله المثل الأعلى، فافهم.

[27]- هذه المثل سمعته من الشيخ فريد الأنصاري رحمه الله تعالى، في أحد دروسه في التفسير.

وهذا الإمام ابن القيم رحمه الله يروي لنا قصة مشابهة: " فَرَأَى فِي بَعْضِ السِّكَكِ بَابًا قَدْ فُتِحَ، وَخَرَجَ مِنْهُ صَبِيٌّ يَسْتَغِيثُ وَيَبْكِي، وَأُمُّهُ خَلْفَهُ تَطْرُدُهُ، حَتَّى خَرَجَ، فَأَغْلَقَتِ الْبَابَ فِي وَجْهِهِ وَدَخَلَتْ، فَذَهَبَ الصَّبِيُّ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ وَقَفَ مُفَكِّرًا، فَلَمْ يَجِدْ لَهُ مَأْوًى غَيْرَ الْبَيْتِ الَّذِي أُخْرِجَ مِنْهُ، وَلَا مَنْ يُئْوِيهِ غَيْرَ وَالِدَتِهِ، فَرَجَعَ مَكْسُورَ الْقَلْبِ حَزِينًا، فَوَجَدَ الْبَابَ مُرَتَّجًا، فَتَوَسَّدَهُ وَوَضَعَ خَدَّهُ عَلَى عَتَبَةِ الْبَابِ وَنَامَ، فَخَرَجَتْ أُمُّهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَمْ تَمْلِكْ أَنْ رَمَتْ نَفْسَهَا عَلَيْهِ، وَالْتَزَمَتْهُ تُقَبِّلُهُ وَتَبْكِي، وَتَقُولُ: يَا وَلَدِي، أَيْنَ تَذْهَبُ عَنِّي؟ وَمَنْ يُئْوِيكَ سِوَايَ؟ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: لَا تُخَالِفْنِي، وَلَا تَحْمِلْنِي بِمَعْصِيَتِكَ لِي عَلَى خِلَافِ مَا جُبِلْتُ عَلَيْهِ مِنَ الرَّحْمَةِ بِكَ، وَالشَّفَقَةِ عَلَيْكَ، وَإِرَادَتِي الْخَيْرَ لَكَ؟ ثُمَّ أَخَذَتْهُ وَدَخَلَتْ.

فَتَأَمَّلْ قَوْلَ الْأُمِّ: لَا تَحْمِلْنِي بِمَعْصِيَتِكَ لِي عَلَى خِلَافِ مَا جُبِلْتُ عَلَيْهِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ.

وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا» وَأَيْنَ تَقَعُ رَحْمَةُ الْوَالِدَةِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ؟

فَإِذَا أَغْضَبَهُ الْعَبْدُ بِمَعْصِيَتِهِ فَقَدِ اسْتَدْعَى مِنْهُ صَرْفَ تِلْكَ الرَّحْمَةِ عَنْهُ، فَإِذَا تَابَ إِلَيْهِ فَقَدِ اسْتَدْعَى مِنْهُ مَا هُوَ أَهْلُهُ وَأَوْلَى بِهِ." [28] ولله المثل الأعلى وليس كمثله شيء.

ألا يستحق هذا الرب الذي يبتليك لأنه يحبك ويخاف عليك من نار جهنم، ويحميك من نفسك، وهو الغني عنك أن تحبه وتذعن له وترضى بحكمه، وتمتثل أمره، شكرا وافتقارا؟

المطلب التاسع: حين لا تعرف الحكمة من العبادة

حين لا يفقه العبد الحكمة من عبادة الله تعالى، ولا يدرك أنه تعبدنا بمدى الامتثال لأمره، حبا وشكرا وافتقارا، وما الأعمال إلا صور لتلك العبادة، فإذا فقد الفهم عن الله تصير تلك الأعمال جسدا بلا روح. إذا كان حاله كذلك فلن تثمر العبادة ما شرعت لأجله، وستكون مجرد طقوس، وأغلالا قيّد بها نفسه.

ومصداق هذا الكلام أشارت إليه جملة من أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، منها حديث : (عن أبي هريرة : أن رجلا دخل المسجد فصلى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في ناحية المسجد ، فجاء فسلم عليه ، فقال له : " ارجع فصل فإنك لم تصل " فرجع فصلى ثم سلم ، فقال : " وعليك ، ارجع فصل فإنك لم تصل " قال في الثالثة : فأعلمني ، قال : " إذا قمت إلى الصلاة ، فأسبغ الوضوء ، ثم استقبل القبلة ، فكبر واقرأ بما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئن راكعا ، ثم ارفع رأسك حتى تعتدل قائما ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ، ثم ارفع حتى تستوي وتطمئن جالسا ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ، ثم ارفع حتى تستوي قائما ، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها)[29]

---

[28]- مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، 213/1، 214.

[29]- متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيا في الأيمان - حديث:6301، ومسلم في كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة - حديث:629، واللفظ للبخاري.

فعمل هذا الرجل يدل على عدم خشوعه في الصلاة، ولذا كانت صلاته مجرد حركات متسارعة يستثقلها الرجل فيعجل في إنهائها، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ال بقرة:٥٤

الذي لا يتلذذ بالصلاة ولا يستشعر أنها قرب من الله وأنس به ومناجاة له وافتقار إليه لا يمكن أن يخشع قلبه فيها، ولهذا ورد عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه، قوله في رجل رآه يصلي ويعبث بلحيته(:إني لأرى هذا لو خشع قلبه خشعت جوارحه)[30]

لو أدرك هذا المصلي أنه يكلم ربه وربه يكلمه، لهدأت نفسه وجوارحه واطمأن في صلاته، وخشع قلبه، لو استشعر حديث النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل: (: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله تعالى : حمدني عبدي ، وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله تعالى : أثنى علي عبدي ، وإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : مجدني عبدي - وقال مرة فوض إلي عبدي - فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين قال : هذا بيني وبين عبدي ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل)[31]

لو استشعرت هذه القيمة العظمى التي يعطيها المولى عز وجل لعبده في الصلاة، كونه يكلمك ويرد على طلبك، لخشعت كل الخشوع، وأحببت هذا الرب الذي يستمع إليك ويجيبك وهو الغني عنك وأنت الفقير إليه.

وحديث آخر يتحدث فيه النبي صلى الله عليه وسلم عن الصيام ومقاصده والحكمة منه، فقال: (رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش ، ورب قائم حظه من قيامه السهر)[32]

الذي لم يفقه الحكمة من الصيام وهو الامتثال لأمر الله عز وجل طلبا لرضاه، يكسبه تقوى الله عز وجل، أما الذي يمسك عن الطعام والشراب ويأتي المنكرات فلم يفهم عن الله عز وجل حين قال﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ال بقرة: ٣٨١

---

[30]- أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه، - كتاب الصلاة، باب العبث في الصلاة - حديث:3198، وغيره.

[31]- أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة - حديث:624، ومالك في الموطأ كتاب الصلاة، باب القراءة خلف الإمام فيما لا يجهر فيه بالقراءة - حديث:187، وغيرهما، واللفظ لمسلم.

[32] - أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الصوم، - حديث:1507، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ، ولم يخرجاه ، وقال الألباني: حسن صحيح، وابن ماجه في كتاب الصيام، باب ما جاء في الغيبة والرفث للصائم - حديث:1686، وأحمد في مسند أبي هريرة رضي الله عنه - حديث:8675.

فالصيام الذي لا يثمر تقوى الله تعالى بمراقبته في كل تصرفاتنا لم يكن إلا إمساكا عن المأكل والمشرب لا عبادة روحية تربي الإنسان وترقى بروحه إلى الملأ الأعلى.ويوضح هذا الحديث الآخر،

(" من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه)[33]

أنت تصوم طلبا لرضاه، فإذا كنت تعصيه في غير ذلك، بقول الزور والغيبة وغيرها فلم تفهم عن الله، فلا يعقل أن تطلب رضاه في الصيام ولا تطلبه في غيره من الأعمال، فلم يحقق الصيام الغاية منه.

جاء في شرحه: "اعلم أنه لا يتم التقرب إلى الله تعالى بترك هذه الشهوات المباحة في غير حالة الصيام إلا بعد التقرب إليه بترك ما حرم الله في كل حال من الكذب والظلم والعدوان على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم ... قال بعض السلف: أهون الصيام ترك الشراب والطعام وقال جابر: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم ودع أذى الجار وليكن عليك وقار وسكينة يوم صومك ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء.

..وسر هذا: أن التقرب إلى الله تعالى بترك المباحات لا يكمل إلا بعد التقرب إليه بترك المحرمات فمن ارتكب المحرمات ثم تقرب. إلى الله تعالى بترك المباحات كان بمثابة من يترك الفرائض ويتقرب بالنوافل"[34]

"وكذلك الصوم تتحصل اللذة فيه من الشعور بالنسبة والالتذاذ بالخدمة قال تعالى في الحديث القدسي: "الصوم لي وأن أجزي به..." هذه هي النسبة، وقال: "ترك طعامه وشهوته من أجلي" وهذه هي حقيقة الالتذاذ بالخدمة." [35] إذا لم تستشعر هذا فلم تفهم عن الله مراده.

<u>المطلب العاشر: أثر معرفة الحكمة من العبادة في ترسيخ السلم والتسامح:</u>

حين يعبد المسلم الله عز وجل بهذا المفهوم للعبادة، بمعنى أن الله عز وجل حين كلفك بعبادته، فهو يريد أن يرى منك مدى الامتثال لأمره – وهو العالم بذلك قبل خلقك - هذا الامتثال الذي لا يكون إلا عن محبة وشكر ورد للجميل مقترنا بالافتقار إليه سبحانه، فإن ذلك سيثمر:

- التلذذ بالعبادة، لأنك تستأنس بمحبوبك، في كل صور العبادة، وتتمثل شكره على نعمه، وأنت في كل ذلك مفتقر إليه وهذا المفهوم يلخصه قوله تعالى﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ الفاتحة: ٥
- إدراك الحكمة من كل عبادة، فتؤدى على وجهها الصحيح
- تصفو قلوب البشر على بعضها البعض، لأن مقصودها يكون واحد هو الامتثال لأمر الله عز وجل

[33]- أخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور - حديث:1813، وغيره.

[34] - لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، ابن رجب الحنبلي، 155/1.

[35]- القواعد الحسان في أسرار الطاعة والاستعداد لرمضان، المعتز بالله أبو محمد رضا أحمد صمدي، 61/1.

- وهذا يؤدي إلى إشاعة الأمن والسكينة في المجتمع، فأنت حين ترى الله تعالى في تعاملك مع الناس، ولا ترى سواه، فلن تؤذي أحدا أبدا ، سيكون تعاملك بالإحسان، وهذا ما عناه حديث جبريل عليه السلام المتفق عليه: (. قال : ما الإحسان ؟ قال : " أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)
- إنسان يعبد الله عز وجل بهذه المعاني السامية لحقيقة العبادة، الامتثال والحب والشكر والافتقار، لا يمكن أن يعيث في الأرض فسادا، بل سيحسن إلى كل من حوله، الناس والحيوان وحتى الجماد، لأنه يرى الله في كل تعاملاته.
- الذي يعبد الله عز وجل حبا لا يمكن أن يكره الناس أو يشيع الكراهية بينهم، أما الذي يعبده عن تعصب وجهل بمقام العبودية الحقة وبمقام المحبة، يفعل ذلك
- الذي يعبد الله عز وجل شكرا وردا للجميل، لن يبخس الناس حقوقهم، ويعرف للناس قدرهم، ولا يتوانى في إسداء المعروف إليهم.
- الذي يعبد الله عز وجل افتقارا، لن يتكبر على خلق الله، ولا يطغى ولا يعيث في الأرض فسادا لأنه لا يرى نفسه، فلا حول له ولا قوة إلا بالله، هو دائما مفتقر ، وأما الذي يطغى ويتجبر فهو الذي يرى نفسه مستغنيا عن الله وعن الخلق قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ ﴾ العلق: ٦ - ٧
- الذي يعي مقصد الابتلاء، والحكمة منه لن يحقد على أحد ولن يحسد أحد، ولا يسخط على قضاء الله تعالى، بل يكون رضيا مسلما أمره لله تعالى، فلا يؤذي الناس بشروره، وأمراضه القلبية.
- الذي يفهم المقصد من الابتلاء بالنعمة ﴿ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ۝٣٥ ﴾ الأنبياء:٥٣ ، لا تجده يزهو ويغتر ويتفاخر على الناس، لأنه مدرك أن المال الذي أعطاه الله عز وجل والنعم التي حباه بها ليس لأنه فضله على خلقه، بل هو امتحان له إن كان يشكر أو يتجبر، ويغفل، فإن أدرك أنفق تلك النعم في مرضاة الله على خلق الله فيعم المجتمع المودة والرحمة.
-

الخاتمة:

ندرك في نهاية هذا البحث، أن العبادة صور قائمة، روحها فهم الحكمة منها، وندرك أن الأعمال كل الأعمال التي حوتها عبادة الله عز وجل ليست مقصودة لذاتها، وإن كنا مطالبين بها كما علمنا إياها ربنا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وما فيها من منافع دنيوية وأخروية فهي للعباد أفرادا ومجتمعات، وإنما المقصود منها تحقق الامتثال من خلالها، حبا وشكرا وافتقارا.

ألم تر أن الله عز وجل أمر سيدنا إبراهيم بالتوقف عن العمل وهو الذبح بمجرد أن أبدى صدق الطاعة وكمال الامتثال عبودية لله تعالى، فكان أمة بذلك.

ويصدّق هذا أيضا حديث الصحابي الذي دخل الجنة دون أن يركع لله ركعة،

عن أبي هريرة رضي الله عنه (أن عمرو بن أقيش ، كان له ربا في الجاهلية ، فكره أن يسلم حتى يأخذه ، فجاء يوم أحد ، فقال : أين بنو عمي ؟ قالوا بأحد ، قال : أين فلان ؟ قالوا بأحد ، قال : فأين فلان ؟ قالوا : بأحد ، فلبس لأمته وركب فرسه ، ثم توجه قبلهم ، فلما رآه المسلمون ، قالوا : إليك عنا يا عمرو ، قال : إني قد آمنت ، فقاتل حتى جرح ، فحمل إلى أهله جريحا ، فجاءه سعد بن معاذ ، فقال لأخته : سليه حمية لقومك ، أو غضبا لهم أم غضبا لله ؟ فقال : بل غضبا لله ولرسوله ، فمات فدخل الجنة ، وما صلى لله صلاة)[36]

فهذا لما رأى الله عز وجل منه صدق النية في دخوله الإسلام الذي هو الاستسلام لله والامتثال لأمره، بصدق التضحية بنفسه في سبيله، كفاه ذلك لدخول الجنة دون أعمال كثيرة من صلاة وزكاة وغيرها من العبادات.

مفهوم الامتثال، هو من فعل مَثُل، فنقول مثل أمام العدالة: أي أتى طائعا خاضعا مستسلما، وذلك عين العبودية، العبودية أن تأتي مستسلما خاضعا طائعا لله تعالى، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١ ﴾ فصلت: ١١

إذا فهمنا العبادة بهذا المعنى، وارتقينا إلى هذا المرتقى من الفهم، فستكون عبادتنا لله عز وجل يسيرة علينا، خفيفة على قلوبنا ، لن نستثقل طاعة مهما عظمت مظاهرها، ولا أمر ولا نهي ولا ابتلاء.

وسنحب من حولنا لأنهم لا ينازعونا ما نحب، فكل ما نحب هو لله تعالى.

ودرجة الامتثال محبة، تأتي بالتعرف إلى الله عز وجل من خلال أسمائه وصفاته وآياته في كتابه وفي خلقه.

وهذا مصداقه قوله عز وجل:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا ﴾ ال بقرة:٥٦١

[36]- أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب فيمن يسلم ويقتل مكانه في سبيل الله عز وجل - حديث:2188، وقال الألباني : حسن، وأخرجه الحاكم في مستدركه كتاب الجهاد، وأما حديث عبد الله بن يزيد الأنصاري - حديث:2468.

يتخذ الناس آلهة للعبادة حبا، والمؤمنون يعبدون الله عز وجل حبا، أشد من حب المشركين لآلهتهم.
أنت إذا عرفت الله حق المعرفة أحببته، لأنه ربك الذي ربّاك وتعهدك وكفل لك رزقك وأسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة، بالليل والنهار مذ خلقت ومن قبل أن تخلق، تخطئ فيعفو وتزل فيستر وتغفل فيصبر، ألا يستحق من هذا وصفه كل المحبة.
وأما درجة الامتثال شكرا وردا للجميل – وهو الغني عنا – فبالعقل والمنطق من أحسن إليك كل هذا الإحسان يستحق أن تعترف بجميل فضله وعظيم إحسانه وتحمده على ذلك.

ومصداق هذا قوله عز وجل: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ ال بقرة:٢٧١
فلتكن عبادتكم له شكرا على نعمه.
وأما الافتقار فيكون مع الدرجتين، لأنك الفقير وهو الغني، أنت الذليل وهو العزيز، افتقارك إليه عز لك، واستغناؤك عنه عين المذلة،قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ فاطر : ٥١

فأنت متى رأيت نفسك، واستغنيت، انحرفت عن طريق العبودية، لأن العبودية من فعل عبّد بمعنى ذلل﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ ال علق: ٦ - ٧
ولهذا كانت (لا حول ولا قوة إلا بالله) كنز من كنوز الجنة، فافهم.
وصلى الله على سيدنا محمد

قائمة المصادروالمراجع

- القرآن الكريم
- صحيح البخاري
- صحيح مسلم

- موطأ مالك
- جامع الترمذي
- سنن أبي داود
- سنن ابن ماجه
- مسند أحمد
- مستدرك الحاكم
- صحيح ابن حبان
- مصنف عبد الرزاق الصنعاني
- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني
- طرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين العراقي
- مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية
- لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، ابن رجب الحنبلي

- القواعد الحسان في أسرار الطاعة والاستعداد لرمضان، المعتز بالله أبو محمد رضا أحمد صمدي،